

## كيف يتحوّل القلب إلى قلب شيطاني؟ ولماذا نغدو شبيهين بالشیطان؟

### هل القلب الشيطاني مجرد استعارة أم يمكن فعلاً أن نُشبهه الشيطان؟

قد كنت تظن حتى اليوم أن "القلب الشيطاني" ليس إلا استعارة أدبية تُستخدم لوصف أقصى درجات الشرّ في النفوس، لكن المدهش أن تعلم أن القلب الشيطاني هو حقيقة قائمة في نظام الخلق. فثمة معادلة دقيقة، إن لم تنسجم أفعالنا معها، فإن قلوبنا مع مرور الزمن تخرج من دائرة الإنسانية، وتدخل تدريجياً في نطاق القلب الشيطاني. ولعلك قد التقيت في حياتك بأشخاص لا يشمون رائحة الإنسانية مطلقاً، أو لعلك سمعت من يقول: "فلان معلّم الشيطان!" ولكن، كيف يحدث أن نصبح مشابهيين للشيطان؟ كيف لقلبٍ هو موضع محبوبنا الأصلي، أي الله، أن يُسلم للشيطان؟ وكيف نختر الخضوع له بدلاً من السعي للتشبهه بصفات الله؟

في الدروس السابقة تبين لنا أن القلب هو محور كياننا الأبدي في الآخرة. لذا، نحن في أمس الحاجة إلى القلب، لكن ليس أي قلب! فالقلب السليم هو الوحيد الذي ينفعنا في نهاية المطاف. والقلب، بحساسيته الفائقة، يمكن أن يتأثر بأيّ من أبعاد وجودنا، فيخرج عن الإنسانية. القلب الذي يتغذى تغذية فاسدة، يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى ما يُشبه الحجر أو الجماد، أو يتحرّك في مستوى النبات أو الحيوان، لا يشبه القلب السليم في شيء. القلب هو الجزء الوحيد من وجودنا الذي ينتمي إلى اللانهاية، لذا لا حدود له. فكما أنه قادر على أن يسمو بلا نهاية ليتشبه بالله في صفاته، فهو كذلك قادر، إن سار في الاتجاه المعاكس، على الانحدار حتى يتحوّل إلى قلبٍ شيطاني. لكن المسألة الأساسية هنا هي: كيف يحدث هذا التحوّل؟ ما هي المراحل التي تجعل الإنسان شبيهاً بالشيطان؟ وما أبرز السمات التي تميّز القلب الشيطاني؟

### الفرق بين القلب الإنساني والقلب الشيطاني

في الجواب عن سؤال: كيف تتحوّل قلوبنا من حالته الإنسانية إلى قلبٍ شيطاني؟ ينبغي أن نعلم أن القلب يشبه الوعاء الذي يُؤوي محبوباتنا. فنحن، بحسب ما نختاره من محبوبٍ لقلوبنا، نمحه شكله ومضمونه. فإن أحسنّا ترتيب محبوبات القلب وأولوياته، غدا القلب سليماً، وصار أداةً لحركتنا في درب الأبدية. فالقلب السليم هو الذي يتخذ الله محبوبه الأعظم، ويُعيد ترتيب سائر محبوباته الأخرى على ضوء إرادة هذا المحبوب اللامتناهي.

ولكن، إذا اختلّ ترتيب الرغبات والميول والأمانى، فإننا بدلاً من أن نكتسب قلباً سليماً، سنبتلى بقلبٍ مريض، يكون أقلّ قدرة على مقاومة التهديدات والمخاطر الخارجيّة، وأكثر عرضةً للانقياس. القلب الضعيف، لا يملك قدرةً ولا إرادةً على المقاومة، يسير حيثما تدفعه الريح. فبحسب الوسط الذي يصنعه لنفسه في الحياة، قد ينجرّ إلى أيّ جهة، ويستسلم بسهولة لرغبات الشيطان، ليصبح في نهاية المطاف شبيهاً به.

والقلب المريض يستسلم بسهولة، واستسلامه يعني الفشل في بلوغ الغاية التي خلّقنا من أجلها. في الواقع، حين يبتعد القلب عن محبوبه الرئيسي، يفقد توازنه، وبحسب درجة هذا الاختلال، تنتهي الأرضيّة للسقوط عن الصراط المستقيم، والانحدار نحو التحوّل إلى قلبٍ شيطاني.

### كيف يغير الشيطان قلوبنا؟

السؤال هنا: هل نتحوّل إلى الشيطان فور انحرافنا عن التوازن؟ بالطبع لا. فامتلاك قلبٍ شيطاني ليس أمراً يحدث بين عشية وضحاها. كما أن الشيطان أذكى من أن يتوقّع منا طاعة عمياء منذ البداية. في الحقيقة، فإنّ تحوّل القلب إلى قلبٍ شيطاني هو نتيجة تراكماتٍ سابقة، تتعلق بما كسبناه وتغذّى عليه وجودنا من قبل. الشيطان لا يقتحم حياة الإنسان اعتباطاً، بل يدخل من الأبواب التي نفتحها له في مختلف أبعاد وجودنا، ويستغلّ الثغرات ومواضع الضعف ويعرف تماماً أين وكيف يستدرجنا. فهو لا يضيع وقته مع إنسانٍ متدينٍ ليغويه بجريمة قتلٍ أو شرب الخمر. بل له خطته الخاصة لكلّ منّا تتوافق مع ترتيب أهوائنا، وشكل أولوياتنا، ومواطن ضعفنا. تماماً كخصمٍ بارع يرسم خطة مدروسة لإقصاء منافسه من ميدان السباق، غير أن هدف الشيطان أدهى وأخطر: أن يسقطنا عن الصراط المستقيم، ويستعبد قلوبنا، ويحوّلها إلى قلوبٍ مظلمةٍ تشبه قلبه.

إن هدفنا الصراط المستقيم هو التشبّه بالله في اكتساب أسمائه وصفاته. ولكن لكلّ صفة إلهية يمكن أن تُكتسب لها وجهٌ مضيءٌ وآخر مظلم؛ فتماماً كما يمكن للإنسان أن يكون جواداً، يمكنه كذلك أن يغرق في البخل. وكما قد يكون هادياً، قد يتحوّل إلى مضل. والرحيم قد ينقلب إلى قاسٍ، وهكذا. وهنا جوهر الحقيقة: نحن في مسيرتنا لا نتوقّف أبداً. لا وجود لحالةٍ محايدة، بل نحن دائماً إمّا أننا نكسب النور ونقترب من أسماء الله، أو نختر الضدّ ونسلّم وجوه قلوبنا للشيطان.

فكلّ من بالغ في التعلّق بأبعاد الجسد أو حتى العقل، وركّز حياته حولها، إنما يهيئ قلبه لسطوة الشيطان. ذلك الذي لا ينفكّ يلاحق مظاهر الترف، ويتلهّف على بيتٍ أفخم، وسيارةٍ أرقى، ومقتنياتٍ أغلى... قد فتح باب قلبه للشيطان، ويمهّد بيده طريق سقوطه.

### هل يمكن للشيطان أن يسيطر عليّ؟

إن لم نُحسن الاختيار، ولم نُتقن ترتيب معشوقات قلوبنا، فإن أي كمالٍ أو رغبة، حتى لو بدت مقدّسة، قد تصبح مدخلاً للشيطان إلى قلوبنا. الشيطان يستغلّ كل فرصة وكل نقطة ضعف ليُزيغنا عن الصراط المستقيم؛ لكنه، في الحقيقة، لا يملك علينا سلطاناً بحد ذاته. نحن من نفتح له الطريق، ونُريه مكامن الاستثمار فينا، بل ونتبعه تدريجياً، حتى نُسلمه مفاتيح قلوبنا دون أن نشعر.

لقد صمّم الله نظام الخلق الإلهي على نحوٍ لا يسمح لأي قوةٍ خارجية أن تفرض سيطرتها على الإنسان دون إذنه. الإنسان هو من يهيئ الظروف، ويمهّد الطريق بيده. فطريقة تغذية القلب، ونوعية الأفكار التي تُربّيها، والمكتسبات التي نخزنها في أبعاد وجودنا المختلفة، كلها تصنع بيئة قابلة لاختراق وساوس الشيطان وقبول وعوده. إن الشيطان "خنّاس"، أي أنه يهمس ثم يختبئ. لا يهاجم بصوتٍ عالٍ، بل يتسلّل من زوايا ضعف نفوسنا. يُلقِي بفكرةٍ عابرة، فإذا لمس فينا ميلاً أو استجابة، تقدّم خطوةٍ أخرى، وهكذا بلا كلل. يعمل في صمت، يكرّر المحاولة حتى يبدّل ذوقنا شيئاً فشيئاً. حتى نستفيق ذات يوم لنجد أن قلوبنا قد استسلمت له بالكامل. نظرنا أصبحت نظرة شيطان، وكلماتنا تحمل نبرة قسوة أو سخرية لم نعتدها. نراجع سلوكنا فنكتشف أننا لم نعد مجرد مقلّدين له، بل تحوّلنا إلى أدواتٍ تُضلل الآخرين.

### كيف تُميّز القلب الشيطاني؟

قد راودنا هذا السؤال من قبل: كيف نعرف إن كان قلبنا قد أصبح شيطانيّاً؟ أو من أين نُدرك أننا بدأنا نشبه الشيطان؟ الحقيقة أن الإجابة ليست معقّدة إذا كنا على دراية بنظام ترتيب المعشوقات ونظام الحب. فكلّ فكرة أو فعل يُفسد علاقتنا بالمحبوب الحقيقي، أو يُبعدنا عن أسرتنا السماوية، هو ليس من الله، بل من الشيطان، حتى لو بدا أمراً طيباً أو مقدّساً في الظاهر. بعبارةٍ أخرى: إذا بدأت ميول القلب تتجه نحو ما يُخالف رغبات المحبوب الأعلى، ويصطدم مع ما يرضيه، فهذا يعني أن وجهة القلب لم تعد إلى الله، بل إلى غيره. وهذا هو الطريق نحو تكوّن قلب شيطاني.

لكن من المهم أن نعلم: ما دام القلب لم يُقفل بالقسوة تمامًا، فباب العودة ما زال مفتوحًا. رغم أن القلب الشيطاني هو من أخطر أنواع القلوب، ويُجسّد اسم "المضلل" من أسماء الله في وجهه التنزيهي، إلا أنه قد يستفيق بصدمة، أو بتذكرة، ويعود إلى الله.

في هذا المقال تبيّننا كيف يمكن للإنسان أن يشبه الشيطان، وأن ذلك لا يحدث فجأة، بل هو نتيجة لاختيارات سابقة، وتغذيات متكرّرة. فالشيطان لا يقتحم القلب بالقوة، بل يتسلل من أبواب فتحناها له بأنفسنا، ويستثمر في نقاط ضعف أديناها له في أبعاد وجودنا المختلفة. وحين يرى منا الإقبال، يتوغّل فينا شيئًا فشيئًا... حتى نجد أنفسنا قد سلّمنا له القلب والطاعة!

قبل أن ننتقل إلى الدرس التالي، من المفيد أن نُراجع ردود أفعالنا في مختلف المواقف، ونتأمل في الاتجاه العام لتحركاتنا: إلى أين يتّجه قلبنا؟